

أهمية اللغة العربية في الدراسات الاستشراقية

الدكتورة : ميم نسرین لطيفة

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سيدي بلعباس

حظيت الدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية باهتمام كبير وعناية فائقة عند الكثير من المستشرقين الأوروبيين وقاموا بإعداد دراسات وبحوث كثيرة تكشف التاريخ والتراث العربي في جوانب كثيرة ، وشملت التاريخ الأدبي والعلمي والفلسفي والاقتصادي والاجتماعي والابستمولوجي والأنثروبولوجي والسوسيولوجي وغيرها من الدراسات التي تعني بالتراث والتاريخ العربيين في مجملها.

كانت الخطوات الأولى لدراسة التراث والتاريخ العربي " دراسة اللغة" العربية باعتبارها المفتاح الأساسي لكشف هذا التاريخ والتراث، وكانت الجامعات الألمانية خاصة جامعة "هايدلبرغ" وقد كثفت اهتمامها بدرس العربية وآدابها ، فظهرت الثمار الأولى لذلك في عام 1582م، مع صدور كتاب "الألفباء العربية" لعمانوئيل تريميلوس" صدور قاموس عربي العام 1597، ثم كتاب " قواعد اللغة العربية" فترجمة لسورة يوسف وكتاب " الأجرومية" ويبدو لنا أن كلمة " مستعرب mozarbar كانت أول مصطلح ، أشار إلى أولئك الأوروبيين الذين أخذوا يدرسون العربية وآدابها لتتحول الكلمة لاحقا إلى " مستشرق" (orientalist) غير أن انعطافا جديدا ، بدا يظهر في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حمل على الرغم من شكلية إطاره، موضوعية أعلى ، فقد صدرت ترجمة كتاب أبي فذا ، عن سيرة الرسول على يد راسيكي في سنة 1663 ، ثم ترجمت ثانية بالفرنسية في 1733 ثم في 1837 ،والجدير بالذكر أن الانعطاف المقصود هو ربط تاريخ الرسول ، للمرة الأولى بالدعوة الإسلامية وفي مقدمة الكتاب جاءت صورة الرسول باعتباره رجلا عمليا ، سعي إلى توحيد بلاد العرب ، التي ساد فيها الصراع والحقد والعصبية والقبلية ، كما صور الرسول كأحد دعاة التوحيد ، وإن تجربته (كانت نموذجية، قامت على السماحة والعفو والمصالحة ، فهو درة ثمينة في تاريخ العرب) ، وهذا ما جعل فولتير

"Voltaire" أحد كبار المفكرين ، الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، يعيد النظر في تقويمه لشخصية محمد ، وتعتبره مشرعا للمسلمين ، داعيا على المحبة والوئام والتسامح ، كذلك تحدث ديدرو "Didro" عن العبقريّة العربيّة ، التي أنتجت مثل هذا المفكر العظيم¹.

يعد ذلك جاءت الرحلات الاستكشافية للعالم العربي مع تقدم بعض المستشرقين في إتقان اللغة العربيّة وبعض اللغات السامية القديمة ، حيث سافر العدد من هؤلاء إلى الشرق بهدف التعمق في تاريخ العرب وثقافتهم وعاداتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والبحث عن آثار الحضارات القديمة وتاريخ صعودها وانحطاطها الخ.

ويبين سجل الإعارات من مكتبة فايمار أن الشاعر الألماني " جوته" استعار أكثر من مرة كتاب (نيبور) (صور وصفية لبلاد العرب) المنشور عام 1772م و كذلك كتاب (نيبور) ثاني (رحلة وصفية لبلاد العرب وما يحيط به من البلدان) بجزأين الأول والثاني ، كان جوته مولعا بتاريخ الشرق وبأدب الرحلات عنه ، وقد اخذ الكثير من المعلومات عن أوصاف الرحلات ومن الوثائق الأخرى التي جاءت فيها عن العرب وتراثهم ، وبفضل الرحالة الكثيرين الذين عكف الشاعر جوته على دراستهم ، استطاع الأوروبيين قراءة بحوثهم التي تتناول الأقطار العربيّة.²

وكما قلنا أنفا أن الأسس التي قام عليها النشاط الاستشراقي كان دراسة اللغة العربيّة وأدائها الإلمام بها إلماما عميقا حتى يستطيع أن يتغلب على العوائق التي تواجه في جهوده وأعمال سواء الأدبيّة أو التاريخيّة أو العلميّة.

وقد امتدت جهود المستشرقين إلى عدة ميادين في مجال الدراسات اللغويّة العربيّة من أجل أن تفتح أبواب الثقافة والأدب وغيرها من المجالات الفكرية للحضارة العربيّة الإسلاميّة ، ولم يسبق للمستشرق أن خاض غمار الاستشراق وتعمق في ميادينه المتعددة دون أن يمر بمرحلة تعلم اللغة العربيّة سواء تعلم في مدرسة أو على يد شخص أو أكثر ، أو نتيجة الاحتكاك والممارسة في البيئة العربيّة والإسلاميّة التي يتقنها بعض المسلمين باعتبارها لغة القرآن الكريم.

وقد انصبّت اهتمامات المستشرقين في الأغلب الأعم على دراسة اللغة العربيّة الفصحى ، للاستفادة من نصوصها القديمة أو الحديثة بهدف التزود بمضامينها الأصليّة في التعرف على التراث العربي القديم ، الذي كتب باللغة العربيّة

الفصيحة وكذلك دراسة اللهجات العربية المختلفة ، لكونها لغة اشتقاقية من اللغة العربية الفصحى ، ومدى اقترانها أو ابتعادها من هذه اللغة.³

ويعتقد بعض الباحثين أن المحاولات الأولى لتدريس اللغة العربية واللغات السامية الأخرى، كانت مع "فرانسوا الأول" (1553) الذي أنشأ معهدا بباريس واعد فيه منبرا لتدريس اللغة العربية واليونانية واللغات السامية الأخرى، وجدده بعد ذلك في بداية القرن السابع عشر "هنري السادس" وفي أواخر القرن السابع عشر بدا تدريس اللغة العربية في الغرب يأخذ أبعادا متقدمة ، إذ اشتهر في جامعتي (أكسفورد) و (كمبردج) عدد من المنشغلين المتخصصين في العربية وآدابها أمثال (توماس جيريزو) و (إبراهيم ويلوك) و (صموئيل كلارك) ثم (بريان ولتون) ثم (دلي لفتوس) العلامة الهولندي المشهور ، ودفع ذلك الجامعتين إلى تأسيس منصبتين جديدين للغة العربية، وقبل ان ينقضي القرن الثامن عشر كانت جامعة (أكسفورد) قد أعدت مطبعة عربية لنشر المخطوطات العربية ، وظهر أول كتاب في " قواعد اللغة العربية: لاربايوس ليدن سنة 1613.⁴

ثم ازدادت المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية التي تعني باللغة العربية في الجامعات والمعاهد الغربية وفي غيرها من المؤسسات الأهلية، ففي القرن التاسع عشر " أنشئت منابر لتدريس العربية في أشهر جامعات روسيا كجامعة قازان سنة 1807، وموسكو سنة 1911، وبطرسبرج سنة 1818، والمدرسة التهذيبية العليا سنة 1819 والكلية الأرمنية " لازارف" ومعهد الرهبان الأرثوذكس بقازان ومنبره انشأ بدلا من منبر العربية بجامعة قازان، وقسم اللغة العربية بمعهد "بوليتكنيك" بلندن. وفي اسبانيا يوجد المعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد ، والجمعية الاسبانية للمستشرقين ، وجمعية فرسان المستنصرين (موثارابيس) والمعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد.

وقال الأستاذ " لامنسون" (1857-1934) : " إن تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة، فالأدب مظهر لحياتنا القومية" وكما قال العرب : الشعر ديوان العرب. وقال " انطوان مابيه" (1866-1936) : " إن علم اللسان جزء من علم الاجتماع ، واللغة العربية تستند – ككل ظاهرة اجتماعية- إلى سلسلة لا نهاية لها من وقائع الماضي ، ومن ثم كان علم اللسان – كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى- علما تاريخيا على نحو ما".⁵

وقد تأثر الغربيون بالأدب العربية المختلفة عندما تعرفوا عليها وقرأوها قراءة متذوقة محايدة ، فقد أثر الأدب العربي الانجليزي بقوة ، وتشهد على ذلك الكثير من الأعمال الأدبية الانجليزية الكبيرة سواء في مجال القصة أو الرواية أو المسرحية ، فاطلع عدد منهم على أعمال وترجمات المستشرقين في الأدب العربي بعد أن احتل مكانة مرموقة ضمن الآداب العالمية ، بعد جهود المستشرقين في التعريف به وإبرازه للغربيين، وعالجوا الكثير من الأعمال العربية المستوحاة ، مثل قصص ألف ليلة وليلة، وقصة عنتره، ومحاكاة معلقة لامرئ القيس، وقصة حي بن يقظان وغيرها من الأعمال الأدبية.⁶

ويذكر المستشرق الايطالي " اماري" الذي كتب تاريخ المسلمين في صقلية، أنه لو زادت معرفتنا الكافية بالشعر العربي في صقلية لصار من المحتمل أن تكشف عن صلات وثيقة وقوية بينه وبين الشعر الايطالي القديم الذي نشأ في أواخر العصور الوسطى ، وإن الباحث على ممارسة الشعر في صقلية هو علم أهلها بأخبار العرب وشعرائهم ، ويؤيد ذلك أن الشعر الشعبي المبكر في إيطاليا يتفق في أوزانه مع الشعر الشعبي في اسبانيا مما يدل على أن المؤثر واحد في الحالتين.⁷

وقد تأثرت الآداب الأوروبية في عمومها بالأدب العربية ، لاسيما القصص الإسلامية ، والأخيلة الشعرية، وغيرها من الآداب التي يزخر بها الأدب العربي وهذه نتيجة لجهود المستشرقين في كشف التراث والتاريخ العربيين ومنه الأدب والثقافة ، واتجه كثير من الأوروبيين بعد ذلك غلى الأدب العربي للتذوق والكشف في مضامينه الثقافية الرفيعة ، وما عرف عنه بخصوصيته وإبداعه .

وفي هذا يقول المستشرق الانجليزي المعروف " هاملتون جب": "إن خير ما أسدته الأدب الإسلامية للآداب أوروبا هي أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها".

والمعروف الشعر العربي أنه بلغ درجة فائقة من السمو والدقة الأحكام وسعة الانتشار جعلت بعض الكتاب يقررون أن العرب وحدهم قرضوا الشعر ما لم تقرضه أمم العالم المتجمعة ، حتى بلغ من حبهم للشعر في بعض الأحيان أنهم ألقوا بعض كتب في التوحيد والفلسفة والجبر نظما .وسرعان ما ظهر اثر الشعر العربي في الأشعار الأوروبية ، حتى إن دانتي اكد : " الشعر الايطالي ولد في صقلية حيث كان للعرب حضارة زاهرة".⁸

لقد كانت العلوم العربية المختلفة ، ومنها الآداب العربية قد لاقت اهتمام الباحثين والمستشرقين الغربيين طوال قرون عديدة، وتأسست معاهد ومراكز ومدارس كثيرة لهذا الغرض ، ولأهداف متعددة ، لكننا في تركيزنا للأعمال العلمية، نجد أن الجهود في هذا المضمار كانت رائدة وقيمة ط وفي هذا السبيل أسسوا المطابع ، وأنشأوا المكتبات، وألقوا الجمعيات، وأقاموا المؤتمرات، وأصدروا والمجلات ، وجمعوا المخطوطات، ونشروا نفائس الكتب، وعلقوا عليها الحواشي وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ، وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء ، وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهج المنطقي، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب، في تحضير المادّة، وتنظيم البحث وتوخي الفقه، وتحري الصواب، وتقصي الحقائق".⁹

في القرن الثامن عشر الميلادي بالتحديد وهي فترة ما سمي عصر النهضة الأوربي والتنوير الفكري المستقل عن تأثيرات الكنيسة وحساباتها الدينية والتبشيرية ظهرت كتابات وأبحاث جادة ومنصفة للعرب وتاريخهم وآدابهم، ويشير بعض الباحثين عن هذه الدراسات ما ألفه أستاذ اللغة العربية في كمبردج ببريطانيا "س.اوكلي" كتاب تاريخ الساراتيين (العرب المسلمين /خ-ج) ويعتبر أول كتاب علمي نشر في المملكة المتحدة عن (ديانة المسلمين)، ثم ظهرت بعض الكتابات الجادة عن العرب وتاريخهم وآدابهم ، وصحبه تفتح على الشرق عموما وسحره وموضوعاته بانجذاب شديد.¹⁰

ومن هؤلاء الذين اهتموا بالأدب العربي تاريخا ولغة " يوهان بورخارت" عضو جمعية بازل العلمية الذي زار بعض البلاد العربية، "ويعد عودته على انجلترا درّس في جامعتي لندن وكمبردج اللغات الشرقية والعلوم الإسلامية ، وتخصص بالأدب العربي، ثم عاد إلى سوريا، فواصل دراسة اللغة والأدب العربيين في حلب لفترة من الوقت حتى أتقن اللغة العربية اتقاناً تاماً وكذلك اللهجات الدارجة ، وانصب اهتمامه بعد ذلك على تاريخ العرب والمسلمين وتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، وقد انتحل اسما مستعارا في رحلاته هذه هو "إبراهيم بن عبد الله" وأحيانا شخصيات أخرى عندما عبر الصحراء العربية في بعض البلاد العربية ،

وعاش في الحجار ، وقضى فترة مع البدو في الصحراء ، وعاش تقاليدهم وعاداتهم ، وامتدح حياتهم وأخلاقهم وحسن تعاملهم".¹¹

وإذا جئنا إلى المؤلفات الدراسات اللغوية حول العربية وآدابها مع اللهجات العامية نجد أن المستشرقين الفرنسيين الأكثر اهتماما مع المستشرقين الألمان - في هذا المضمار ، "ويستطيع المرء القول إن أكثر أنواع الدراسات العربية تطورا في فرنسا هي هذه الدراسات اللغوية، ويسرد في قائمة هذه الدراسات هنا، ما يدل على مثل هذا والحديث، ودراسة لهجاتها الحديثة في مختلف أنحاء الوطن العربي، ووضع الخرائط والأطالس اللغوية، ودراسة اللغة العربية ضمن أسرة أخواتها من اللغة العربية التي أطلق عليها المستشرقون خطأ اسم اللغات (السامية)، ودراسة أصوات العربية وتطور الدلالة فيها ، ودراسة البنية اللغوية العربية على وجه العموم ، ومن أبرز هذه الدراسات:

- نشر (ديلابورت) في الجزائر سنة 1836، كتابا بعنوان : بحوث في اللغة العربية .
- ونشر (رينان) كتابه المشهور : تاريخ اللغات " السامية" في جزئين في سنتي 1853 و1862 ويتناول فيه اللغة العربية تناول مقارنة .
- ونشر (رينو) كتاب بعنوان : اللغة العربية في سورية ، سنة 1857.
- والف (مونك) دراسة بعنوان : تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العربية بعد التوراة ، ونشرها بباريس 1857.
- وبشر (بارتيليبي) سنة 1905 رسالة في لغة حلب العامية ، وفي سنة 1906 نشر: نبذة عن لهجة القدس.
- وأصدر كانتينو ، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النص الأول من القرن العشرين، ويعد رائدا في الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها) : لهجة عرب تدمر، في جزئين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، بيروت سنة 1934.
- كما نشر أيضا كتابا بعنوان : بعض لهجات بدو العرب في الشرق ضمن منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي 1936 و1937.

ونشر أيضا كتابا بعنوان : اللهجات العربية في حوران (مع ملحق بخرائط جغرافية للمناطق المدروسة) ، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي 1940 و 1946.

كما نشر أيضا كتابا بعنوان : محاضرات في علم الصوت العربي في الجزائر سنة 1941.

- ونشر هنري فليش، سنة 1947 كتابا بعنوان : مدخل إلى دراسة اللغات السامية في باريس.

- كما نشر أيضا كتابا بعنوان العربية الفصحى (دراسة البنية اللغوية) في بيروت سنة 1956، ثم أعاد طبعه سنة 1968".¹²

ومن المستشرقين الذين أسهموا إسهاما رائدا في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والمعمجية العربية ، ولهم بصماتهم الكبيرة والمرجعية في هذا الجانب، المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) صاحب كتاب "تاريخ الأدب العربي" بأجزائه الخمسة، والمرجع الذي لا غنى عنه للباحثين في هذا التخصص الهام في فكرنا وأدبنا العربي.

وقد اشتهر بروكلمان بجم نشاطه الغزير الذي اتصف بالموضوعية - في أغلبها- والعمق والشمول والجدة، مما جعله مرجعا في التاريخ الإسلامي والأدب العربي ولبروكلمان الكثير من المؤلفات والتراجم، وتحقيق المخطوطات في المجال الأدبي- بعد كتابه الضخم (تاريخ الأدب العربي) مؤلفات ابن المقفع في البيان والبلاغة، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة في أربعة أجزاء، ومختصر تاريخ الآداب العربية، وقواعد اللغة العربية لسوسين، وتاريخ الآداب النصرانية في الشرق، وملاحظات شتى على تاريخ الآداب العربية، واللغات المتشابهة في اللغات السامية، والجوهري وترتيب الحروف الهجائية، وأسماء التصغير والتكبير في اللغات السامية، وملاحظات شتى في اللغة الكنعانية، في تصنيف كتاب العربية فقها وأدبا، وله إسهامات كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية خاصة في الدراسات التاريخية والأدبية.¹³

من المستشرقين المبرزين في ميادين الأدب العربي واللغات السامية ، المستشرق الفرنسي "غيوم بوستل" الذي أجاد العربية ، وعدد من اللغات الشرقية ، وله دور بارز في ميدان الدراسات العربية في عصر النهضة، ويرى غوستاف دوغا

الذي أرخ لمستشقي أوروبا عموما انه أول مستشقي فرنسا على الإطلاق ، وفتاحة عهد جديد بما حاز من معرفة باللغات الشرقية لم تكن لعالم باحث قبله.

وقد كان بالفعل فريد في عصره ووحيد في دهره في الإلمام باللغات الشرقية ومنها العربية – ويذكر المستشرق النمساوي يوسف جبرا أن حياة بوستل حافلة بالعجائب والمغامرات والآراء الغربية ، ويذكر ميله للإسلام غدا كان يقول واعظا "ينبغي لكل إنسان أن يكون تابعا لدين صالح، ومعنى ذلك أن يكون له دين مؤلف من مميزات الأديان لاسيما من الدين الإسلامي ، ففيه أجود الآراء وأحسنها".

ترك (بوستل) أثرا عديدة ذات أهمية ، وخاصة في مجال الدراسات العربية إلى جانب تعليمه العربية في المعهد من سنة 1538 إلى سنة 1543.

ومن أبرز هذه الآثار: كتابه (النحو العربي) وكتاب الحروف الهجائية في العربية) واللغات السامية، كما له الكثير من المحاضرات والدراسات في اللغات السامية.¹⁴

ومن المستشرقين البارزين في الدراسات العربية وأدبها وغيرها من المجالات الأخرى المستشرق الانجليزي "هاملتون جب" الذي نال شهرة واسعة في عصره يختلف البعض في تقييمها، لكن "جب" يعتبر من المتخصصين في اللغات السامية ومنها العربية ، وأصبح بعد ذلك أستاذا للغة العربية في جامعة لندن.

وفي عام 1926-1930 عين بلقب Reader في تاريخ العرب والأدب العربي في جامعة لندن، ولما توفي سير توماس ارنولد في 1930 خلفه على كرسي اللغة العربية في جامعة لندن (ومقره في مدرسة اللغات الشرقية)، كما خلف سير "توماس أرنولد" كمحرر بريطاني " لدائرة المعارف الإسلامية " وفي عام 1945، كان احد المرفين الاوائل، واستمر في كرسية بجامعة لندن حتى 1973- حيث صار استاذا للغة العربية في جامعة اكسفورد خلفا لمرجوليث ، ثم زميلا في كلية سانت جون بأكسفورد.

وقد تميّز "جب" بتعدد الموضوعات التي كانت حولها ، وله العدد من الأبحاث والمؤلفات منها في اللغة العربية، والأدب العربي، ودراسات في الأدب العربي المعاصر، له كتاب: شاعر ونحوي عربيان، وله الكثير من الدراسات العربية الأخرى في التاريخ والقانون والفلسفة والتراجم وغيرها وقد عين عضوا في المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي في القاهرة.¹⁵

ويجب ألا ننسى مستشرقين كبارا كانت لهم ادوار بارزة في اللغة العربية وأدائها ، وأسهموا إسهاما كبيرا من أمثال المستشرق الفرنسي " دي ساسي" والبريطاني " دافيد مرجليوث" والهولندي " توماس فان اربن" والألماني " أدولف فردريش".

الهوامش:

1. - ينظر: إبراهيم الحيدري، صوت الشرق في عيون الغرب- دار الساقى - لندن، ط1، 1996م، ص830.
2. - ينظر: كاترينا، جوته والعالم العربي ، تر: عدنان عباس- الكويت - ص 179-180.
3. - ينظر: محمود مقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1413هـ/1992م ص ص 145-150.
4. - ينظر: عبد العال محمد الجبري ، الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، مكتبة وهبة - القاهرة ط1-1995م، ص27.
5. - ينظر: عبد العالم محمد الجبري ، الاستشراق في وجه الاستعمار الفكري، مرجع سابق، ص ص 27-38.
6. - ينظر: نجيب العقيلي ، المستشرقون ، ج2- ط5، مج3، القاهرة ، دار المعارف 2006م، ص ص 38-39.
7. - ينظر: سعيد عبد الفتاح عاشور- معهد الدراسات الإسلامية - القاهرة- ط 1987، ص251.
8. - ينظر: المرجع نفسه، ص260.
9. - ينظر: أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي ، ط24، لم يذكر اسم ناشر الكتاب أو تاريخ نشره، ص ص 513-514.
10. - ينظر: أليكس جورافيسكي ، الإسلام والمسيحية ، تر: خلف محمد الجراد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ، نوفمبر 1996، ص96.
11. - ينظر: إبراهيم الحيدري ، صورة الشرق في عيون الغرب ، مرجع سابق ، ص 52-54.
12. - ينظر: محمود مقداد ، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، مرجع سابق ، ص154-160.
13. - نجيب العقيلي ، المستشرقون ج2- مرجع سابق- ص 424-430.
14. - ينظر: محمود مقداد ، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا- مرجع سابق- ص 102-103.
15. - ينظر: محمد عبد الحميد صالح حمدان : طبقات المستشرقين - مكتبة مدبولي - القاهرة - ص 111-112.